أوحشت أرض الشام

وعاب قوم عليه علوّ الخيام فقال:

[الوافر]

لَـقَـدْ نَـسَـبُـوا الْـخِـيَـامَ إِلَـى عَـلَاءِ
أَبَـيْـتُ قَـبُـولَـهُ كـلَّ الإِبَـاءِ(١)
وَمَـا سَـلَّـمْـتُ فَـوْقَـكَ لِـلـثُّـرَيَّـا
وَلَا سَـلَّـمْـتُ فَـوْقَـكَ لِـلـسَّـمَـاءِ(٢)
وَقَـدْ أَوْحَـشْـتَ أَرْضَ الـشَّـامِ حَـتَّـى
سَـلَـبْـتَ رُبُـوعَـهَـا ثَـوْبَ الْـبَـهَـاءِ(٣)
تَـنَـفَّـسُ وَالْـعَـوَاصِـمُ مِـنْـكَ عَـشْـرٌ
فَـتَـعْـرِفُ طِـيـبَ ذٰلِـكَ فِـي الـهَـوَاءِ(٤)

= أنشودة تحرّك المشاعر، والشاعر كان بين أمرين إما أن يستمع للمغني وينسجم معه، وإما أن يملأ ناظريه بمفاتن ممدوحه، لذا فالغناء لا يشدّه وإنما شغل قلبه وعقله بمفاتن ممدوحه وأفضاله التي يسعى الشاعر لإشباع نهمه منها، فالغناء بلغة المال يعني الإفلاس، وسرعان ما يتلاشى أثره في نفس الماديين عادة.

(١) و (٢) يعتذر الشاعر إلى ممدوحه من أنه جعل خيامه عالية، ولم يقصد الإساءة إليه فهي عالية علوًّا مادياً، وهو علوّ لا يساميه شرف ممدوحه وسؤدده؛ إنّه يلامس النجم بل يزيد على الثريا، والشاعر لا يرى علو السماء شيئاً إذا ما قيس برفعة ممدوحه.

(٣) أوحش المنزل: أقفر وذهب عنه الناس. سلبت: اختلست الربوع، الواحد ربع: الدار بعينها. البهاء: الحسن. يخاطب الشاعر ممدوحه بأنه سرّ البهجة حيثما حلّ؛ فأرض الشام ذهب عنها جمالها، وأقفرت فيها الديار، بعدما استحوذ الممدوح على سرّ جمالها بانتقاله منها إلى العواصم.

(٤) العواصم: بلاد قصبتها أنطاكية. ومن مغالاة الشاعر في مدحه أن عبق طيب ممدوحه يسبقه إلى حيث انتقل قبل مسيرة عشرة أيام، فإذا برعيته يتنسمون هواءً جديداً، فيه عبق الأمل والطمأنينة والأمن في ربوعهم.